

قد لا تضم هذه الأوراق التي نحتفل اليوم بصدورها في كتاب أنيق، كل الأجوبة على الأسئلة التي يطرحها أمامنا تراث زكي ناصيف، والتي بدون أي شك كثيرة ومتنوعة وجوهرية ... إلا انها ومع الكلمات الأولى تدخلنا سريعاً إلى مناخ تأملي هادئ وعميق يعيد أمامنا رسم صورة زكي ناصيف كشخصية فنية فريدة من نوعها، في غناها وعمقها ورسالتها وتواضعها وطموحها الفني من جهة، وكشخصية فنية مؤسسة لعالم غنائي موسيقي جديد.

لا بدّ من العودة إلى منتصف القرن الماضي إلى خمسينات وستينات لبنان القرن العشرين. إنها سنوات الإستقلال. سنوات التأسيس لهوية ثقافية فنية مميزة، وسنوات تأسيس المهرجانات، وسنوات تأصيل أفكار ومنطلقات عصر النهضة العربي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في الإنفتاح على العصر والتقدم وإحياء التراث، أو في الإنضواء تحت شعار الأصالة والحداثة.

تأسيس "عصبة الخمسة" عام 1945 إشارة أولى إلى بلورة الهوية الثقافية أو الهوية الفنية. فإذا كان الهدف الواضح والمعلن الوصول إلى تحقيق أغنية أو موسيقى غير تابعة أو مقلدة أو متأثرة بفنون دخيلة، فإن الهدف الأعمق أو السعي الروحي هو الوصول إلى فن يحمل هوية البيئة أو المجتمع أو الوطن أو الأمة.

وتأسيس مهرجانات بعلبك الدولية عام 1957 خطوة أولى لتجسيد هذه الخصائص التي تتشكل منها هذه الهوية الفنية والتي ستشهد بالضرورة على أصالة هذا المجتمع في الإبداع والتاريخ.

وتأسيس فرقة الأنوار عام 1960 إشارة أيضاً إلى أن العودة إلى الماضي، إلى التراث، إلى الفلكلور، إلى العادات والتقاليد الشعبية، ليست من قبيل المحافظة أو الرّدّة إلى الماضي، بل هي للإنتلاق إلى المستقبل بالضرورة. هي للحوار مع الآخر وتأكيد الإستقلال والمساواة والمشاركة في صنع الحاضر.

منذ البداية عرف زكي ناصيف أنه لتحقيق الهوية الحضارية لا بدّ من رؤيا شاملة تفهم المجتمع والانسان فهماً ينطلق من أسس تاريخية واضحة. ومنذ البداية أيضاً عرف زكي ناصيف أنه للوصول إلى الإبداع، لا بدّ أيضاً من رؤيا شاملة لمعنى الفن ودور الفنان.

هكذا مضى في خطواته نحو الفلكلور أو ما يسميه الغناء الشعبي، لأنه رأى أن هذه الأغاني قد تكون الباب للوصول إلى السمات أو الخصائص التي تتصف بها هوية المجتمع وبالتالي أصالته.

فهو يردد وبوضوح أكثر من مرة في هذه الأوراق أن هذه الأغاني إنما هي مظهر لعادات وتقاليد شعبية للتعبير عن الفرح أو الحزن أو للتعبير عن التضامن والوحدة. وبالتالي فإن الإقتراب منها اقتراب من عمق هذا المجتمع وصفاته وخصائصه، مما يساعدنا على أن نبني فناً أصيلاً.

يردد زكي ناصيف في كل مرة جاء الحديث عن الفلكلور أنه يعود إلى ولادة المجتمعات البشرية من حيث كياناتها المميزة المستقلة كل منها عن الأخرى بشكل ظاهر. وإن الدبكة مثلاً تمارس كما يشير أكثر من مرة في أكثر المناطق اللبنانية والسورية والاردنية والعراقية.

يرى زكي ناصيف منذ البداية ذاكرة التراث تتسع لتحيط مجتمعات وحدتها طبيعة أرضها وصفات انسانها لذلك يقرأ التنوع الفلكلوري في تنوع المجتمعات الزراعية أو الصحراوية أو البحرية. أي انه يقرأ الصفات الحضارية لكي يقف على أرض ثابتة.

من جهة ثانية، لم يبتعد زكي ناصيف لحظة واحدة عن مصدر غنائي آخر هو التراث الديني بما فيه الأديان الوثنية، التي تنحدر إلينا، كما يشير، من عهد آشور وبابل...

يقول : نستطيع القول بأن عندنا تراثاً موسيقياً قائماً في بيئتنا التي عرفت المعابد القديمة فبقي من تلك المعابد ألحان كثيرة انتهت إلينا بالتوارث أثرت في غنائنا بصورة لا شعورية، لذلك عرفت بيئتنا فن الملاحظة والبناء، فبقي لدينا من أهازيج العمال ما نسمعه عفويا من الباعة في المدن البحرية، وعرفت بيئتنا النكبات والمآسي كما مرت بعهود ازدهار، بقي لنا من تأثير هذه رقص فيه الكثير من التعبير والحان فيها الكثير من التفجع.

إنها إذا حضارة ما بين النهرين، حضارة الاساطير والملاحم الشعرية وحضارة الاديان التي تطورت لتصبح أديان التوحيد العالمية.

بتصفح هادئ لهذه الاوراق، تكشف لنا رؤية زكي ناصيف الموسيقى الشاملة ومفهومه الخاص في التجدد والتغيير وبقليل من التأمل نستطيع ان نقرب من هذه الرؤيا.

الجزر السرياني والذي شكل فيما بعد الموسيقى البيزنطية، جذر لم يتجزر ويتفرع هنا في هذه الأرض التي نقف عليها والتي تحيطنا فحسب بل امتد ليشكل موسيقى العالم... فمع هجرة النخب البيزنطية بعد سقوط القسطنطينية انتقل هذا الجذر الموسيقي الغنائي الديني والدنيوي من الشرق إلى الغرب لينضم إلى العناصر الجديدة التي شكلت فيما بعد ما نسميه النهضة الأوروبية أو الموسيقى الغربية في أساليبها الجديدة.

ثم يقف عند التراث العربي الذي يبدأ مع الموسيقى العباسية لينتقل من هناك إلى الأندلس ليعود مرة جديدة إلينا عن طريق الموشحات متوقفاً أمام مسألة كثيراً ما أثارت الجدل أي مسألة اللغة العربية، ليشهد شهادة عميقة حيث يضم التجويد إلى التراث الغنائي الإبداعي لكل من أم كلثوم وعبد الوهاب.

من هنا نفهم لماذا زكي ناصيف يعود أو يستلهم تجربة الخمسة الروسية، التي سعت بدورها للتخلص من التأثيرات الموسيقية الغربية الطاغية وذلك بالعودة الى التراث الموسيقي الروسي، أو التراث القومي والذي

يشبه بتنوعه وغناه تراثنا الفلكلوري، بالعودة أيضاً إلى التراث الديني والذي هو التراث البيزنطي الشرقي الذي لم ينقسم بعد بين كنيسة شرقية وكنيسة غربية.

يتطلع زكي ناصيف إلى هذه التجربة أو هذا التيار الموسيقي لأنه استطاع فيما بعد أن يقف مع الموسيقى الغربية كموسيقى عالمية وأن يحقق بواسطتها ابداعاً موسيقياً إنسانياً عالياً. وبالتالي فإنه من الممكن يوماً ما أن نشترك مع العالم في كتابة موسيقى خاصة بنا مساوية لأي موسيقى عالمية.

باختصار كان زكي ناصيف يود ان يؤكد انه اذا استطعنا ان ننطلق من تراثنا الفلكلوري الشعبي، أو من تراثنا الديني، نستطيع ان نكون عالميين أو مبدعين، أو بكلام آخر إذا استطعنا أن نكون نحن نستطيع أن نصل إلى الآخر أو نستطيع أن نكون الغير أو نستطيع أن نكون الإنسان الواحد.

ماذا حدث، لماذا لم تتحقق هذه الرؤيا، لماذا لم يتحقق هذا الحلم.

إن قراءة تأملية في النصف الثاني من القرن العشرين تقول لنا أن الطريق التي تقود إلى الذات إلى تحقيق الوحدة والهوية والإستقلالية طريق تنزف دمًا ومحاصرة بالحروب والموت.

إن قراءة تأملية للواقع الذي نعيشه الآن تقول لنا انه علينا أن ننتبه أن نكون أكثر يقظة أكثر تماسكاً فإذا كنا لم ننتصر فقد ننهزم للمرة الألف. وان نخسر القليل الذي ربحناه. وان الطريق ما تزال في البداية وانه كتب علينا ان نعيد المحاولة للمرة الألف.

هكذا نفهم الآن تجربة زكي ناصيف نفهم تواضعه، نفهم صبره نفهم صمته نفهم عناده نفهم تقشفه ونفهم ابتسامته.

كان زكي ناصيف يستطيع ان يكون مغنيًا نجمًا، فهو يملك صوتًا غنيًا في امكاناته ، صافيًا وحنونًا. لكنه لم يكن يتطلع إلى مثل هذه الشهرة.

كان زكي ناصيف يستطيع أن يكون ملحنًا شهيرًا فهو يملك تقنيات ومعرفة موسيقية جيدة، ويستطيع أن يكتشف الأصوات وأن يسيطر على التوزيع لكنه لم يكن يسعى إلى ذلك.

كان زكي ناصيف يستطيع أن يكون شاعرًا وشاعرًا غنائيًا، فهو يملك الموهبة في ذلك لكنه لم يكن يسعى إلى ذلك.

كان زكي ناصيف يستطيع أن يكون نجمًا. لكنه كان يريد ويطمح إلى غير ذلك، كان يسعى أن يكون مبدعًا مجددًا في فن الموسيقى والغناء، كان يريد أن يكون مبدعًا في مجتمع مبدع وفي أمة خيرة.

سمير الصايغ

2014/12/4